رؤى من القرآن مبشرة بمستقبل الإسلام

الأستاذ نجيب بوحنيك
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية. جامعة باتنة

لا محالة أن الله ضمين البقاء والاستمرار لهذا الدين.. ولا محالة أيضا أنه ضمن له الاستخلاف والتمكين والظهور على غيره من الأديان.. وهذا مما بينه في نصوص وحيه : من آيات القرآن الكريم وكلام نبيه محمد سيد المرسلين.

وعند رجوعي للنصوص الواردة في هذه المسألة من الوحي العظيم.. وقفت على آيات يبشر الله من خلالها بصورة واضحة صريحة على أن المستقبل للإسلام، وهي قوله -جل في علاه-: **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**".

فعزمت -مستعينا بالله- أن أقف وقفة متأنية عند هذا السياق القرآني، وتجلية الحقيقة الكبرى التي تضمنها.. في هذا البحث المتواضع تحت عنوان :

رؤى من القرآن والسنة مبشرة بمستقبل الإسلام.

ضمن النقاط الآتية :

1/ مواضع ورود هذا السياق من سور القرآن الكريم :

ورد هذا السياق في مواضع عديدة من سور القرآن الكريم مرتبة على النحو الآتي :

أولا : سورة التوبة [الآية : 32. 33]

قال تعالى : " **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ".

ثانيا : سورة الفتح [الآية : 28]

قال تعالى : "**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا**".

ثالثا : سورة الصف [الآية : 8، 9]

قال تعالى : "**يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**".

2/ المعاني التبشيرية العامة لهذا السياق القرآني :

لقد تضمنت الآيات السابقة أساليب عديدة توحي في معناها العام على أن الله –عز وجل– سيمكن لدينه الاسلام– ويظهره على جميع الأديان الباقية.. وتكون خاتمة حكم هذه المعمورة به.. وهذه الأساليب من خلال السياق القرآني هي: "**نور الله**".. و"**يأبى الله إلا أن يتم نوره**".. و"**والله متم نوره**".. و"**ليظهره على الدين كله**".

قال ابن عاشور –رحمه الله– : "قوله : "**يريدون أن يطفئوا نور الله**"... استئناف ابتدائي لزيادة إثارة غيظ المسلمين على أهل الكتاب. بكشف ما يضمرونه للإسلام من المبالاة، والتألب على متناواة الدين، حين تحققوا أنه في انتشار وظهور، فثار حسدهم وخشوا ظهور فضله على دينهم. فالضمير في قوله "**يريدون**" عائد إلى "**الذين أوتوا الكتاب**".

...و إضافة النور إلى اسم الجلالة إشارة إلى أن محاولة إطفائه عبث وأن أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مرادهم.

و الإباء والإباية : الامتناع من الفعل، وهو هنا تمثيل لإرادة الله تعالى إتمام ظهور الإسلام بحال من يحاوله محاول على فعل وهو يمتنع منه، لأنهم لما حاولوا طمس الإسلام كانوا في نفس الأمر محاولين إبطال مراد الله تعالى. فكان حالهم، في نفس الأمر، كحال من يحاول من غيره فعلا وهو يأبى أن يفعله"[1].

وقال في شرحه لسورة الصف : "وإضافة نور إلى اسم الجلالة إضافة تشريف، أي نورا أوقده الله، أي : أوجده وقدره فما ظنكم بكماله"[2].

و "الإتمام في قوله : "الا أن يتم نوره". مؤذن بالزيادة والانتشار ولذلك لم يقل : "و يأبى الله الا أن يبقي نوره"[3].

و قال في شرحه لسورة الصف : "و الله متم نوره" : والجملة الاسمية تفيد ثبوت هذا الإتمام، والتمام هو حصول جميع ما للشيء من كيفية أو كمية. فتمام النور : حصول أقوى شعاعه وإتمامه إمداد آلته بما يقوي شعاعه"[4].

و "لو في "ولو كره الكافرون" اتصالية، وهي تفيد المبالغة بأن ما بعدها أجدر بانتفاء ما قبلها لو كان منتفيا. والمبالغة بكراهية الكافرين ترجع إلى المبالغة بآثار تلك الكراهية، وهي التألب والتظاهر على مقاومة الدين وإبطاله. وأما مجرد كراهيتهم فلا قيمة لها عند الله تعالى حتى يبالغ بها، والكافرون هم اليهود والنصارى"[5].

و قد اختلف في معنى "النور" الوارد في الآية على أقوال :

"قال السدي : المراد بالنور هنا الإسلام، وقال الضحاك هو محمد –صلى الله عليه وسلم– وقال الكلبي هو القرآن. وقال بعض المفسرين المراد بالنور الدلائل على التوحيد ونبوة محمد –صلى الله عليه وسلم– لأنها يهتدى بها إلى الحق في العقليات، كما يهتدى بالنور في رؤية الحسيات"[6].

و قد رجح محمد رشيد رضا بين هذه الأقوال فقال : "ونختار هنا القول الأول وهو دين الإسلام بالمعنى العام الشامل لكل ما جاء به رسل الله، ولاسيما دين التوراة والإنجيل والقرآن. وقد كان كل منها نورا لأهله في الزمن الذي نزل به بقدر حاجتهم حتى إذا نزل القرآن كان هو النور الأعظم الكافي لهداية جميع البشر إلى آخر الزمان"[7].

ثم بين –رحمه الله– وجه المفارقة بين "والله متم نوره" في سورة الصف، و"ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره" في سورة براءة، فقال : ثم إن بينهما فرقا وهو التعبير في آية سورة الصف بقوله : "والله متم نوره" وفي سورة براءة بقوله : "ويأبى الله إلا أن يتم نوره" والأول : يفيد أنه متمه بالفعل في الحال، والثاني : وعد بأن يتمه في الاستقبال، فيجتمع منهما إثبات هذا الإتمام في الحال والاستقبال، فهو النور التام الكامل الذي لا ينطفئ بالقيل والقال، بل يبقى مشرقا إلى أن يأذن الله لهذا العالم بالزوال. ولما كان هذا الوعد الذي يتعلق بالمستقبل المغيب عن علم الخلق من شأنه أن يرتاب فيه الناس، أكده الله تعالى بما لم يؤكد به الخبر الأول لأن صدقه مشاهد لا يحتاج إلى التأكيد، وتأهيك بقوله : "ويأبى الله إلا أن يتم

نوره" أي أنه لا يرضى ولا تتعلق إرادته بشيء في هذا الشأن إلا شيئا واحدا وهو أن يتم نوره فلا يجعل في قدرة أحد أن يطفئه.

و الآية تشعر بأن هؤلاء الكافرين الكارهين له سيحاولون في المستقبل إطفاء هذا النور كما حاولوا ذلك في عصر من أتمه وأكمله بوحيه إليه وبيانه له.

و هذا ما وقع من قبل... وأفظعه الحروب الصليبية ومقدماتها، وما هو واقع الآن، فإن دعاة النصرانية (المبشرون) من الإفرنج يغلون في الطعن على الإسلام والقرآن والنبي -صلى الله عليه وسلم- في كل بلد لهم فيه حكم أو نفوذ أو امتياز"[8].

و قد بيّن ابن عاشور سرّ تذييل آية براءة والصفّ بقوله : **ولو كره الكافرون**" فقال : "والله متم نوره" على فرض كراهة الكافرين، ولما كانت كراهة الكافرين إتمام هذا النور محققة كان سياقيا في صورة الأمر المفروض تهكما... وإنما كانت كراهية الكافرين ظهور نور الله حالة يظن انتفاء تمام النور معها، لأن تلك الكراهية تبعثهم على أن يتألبوا على إحداث العراقيل وتضليل المتصدين للاهتداء وصرفهم عنه بوجوه المكر والخديعة والكيد والإضرار... وشمل لفظ "الكافرون" جميع الكافرين بالإسلام من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم.

و لكن غلب اصطلاح القرآن على تخصيص وصف الكافرين بأهل الكتاب ومقابلتهم بالمشركين أو الظالمين ويتجه على هذا أن يكون الاهتمام بذكر هؤلاء بعد (لو) الوصلية لأن المقام لإبطال مرادهم إطفاء نور الله فإتمام الله نوره إبطال لمرادهم إطفاءه"[9].

و قد عقب الشهيد -سيد قطب- عن قوله تعالى : "**يريدون ان يطفئوا نور الله بافواههم**".

فقال في سورة التوبة : "إن أهل الكتاب هؤلاء لا يقفون عند حد الانحراف عن دين الحق، وعبادة أرباب من دون الله، وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر – وفق المفهوم الصحيح للإيمان بالله واليوم الآخر- إنما هم كذلك يعلنون الحرب على دين الحق، ويريدون إطفاء نور الله في الأرض المتمثل في هذا الدين، وفي الدعوة التي تنطلق به في الأرض، وفي المنهج الذي وصوغ على وفقه حياة البشر... "**يريدون أن يطفئوا نور الله بافواههم**"..

فهم محاربون لنور الله. سواء بما يطلقونه من أكاذيب ودسائس وفتن، أو بما يحرصون به أتباعهم وأشياعهم على حرب هذا الدين وأهله، والوقوف سدا في وجهه- كما كان هو الواقع الذي تواجهه هذه النصوص وكما هو الواقع على مدار التاريخ.

و هذا التقرير -وإن كان يراد به استئناسة قلوب المسلمين إلى ذلك- هو كذلك يصور طبيعة الموقف الدائم لأهل الكتاب من نور الله المتمثل في دينه الحق الذي يهدي الناس بنور الله"[10].

وقال في سورة الصف : "ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة. فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام، وظلتا تغيران عليه أو تؤلبان عليه في غير وناة ولا هدنة في جيل من الأجيال. حاربوه في الحروب الصليبية في المشرق، وحاربوه في الاندلس في المغرب، وحاربوه في الوسط في دولة الخلافة الأخيرة حربا شعواء حتى مزقوها وقسموا تركة ما كانوا يسمونه "الرجل المريض".

...و هذا النص القرآني يعبر عن حقيقة، ويرسم في الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء! فهي حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم : "**هذا سحر مبين**".. ويدسون ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد. وهي صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم الضعاف المهازيل!"[11].

و عقب على قوله : "**ويأبى الله إلا أن يتم نوره**" في سورة التوبة، فقال : "وهو الوعد الحق من الله، الذال على سننه التي لا تتبدل، في إتمام نوره بإظهار دينه ولو كره الكافرون.. وهو وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا، فيدفعهم هذا إلى المضي في الطريق على المشقة والأواء في الطريق؛ وعلى الكيد والحرب من الكافرين.. كما أنه يتضمن في ثناياه الوعيد لهؤلاء الكافرين وأمثالهم على مدار الزمان"[12].

وعقب على قوله : "**والله متم نوره**" في سورة الصف فقال : ".. وصدق وعد الله، أتم نوره في حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم- فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج الإلهي المختار. صورة ذات معالم واضحة وحدود مرسومة، تترسمها الأجيال لا نظرية في بطون الكتب، ولكن حقيقة في عالم الواقع. وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام

دينا يحبونه، ويجاهدون في سبيله، ويرضى أحدهم أن يلقى في النار ولا يعود إلى الكفر. فتمت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء. وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين وتنبض وتنتفض قائمة -على الرغم- من كل ما جرّد على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد وبطش شديد. لأن نور الله لا يمكن أن تطفئه الأفواه، ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد، في أيدي العبيد! وإن خيل للطغاة الجبارين، وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بلغوا هذا الهدف البعيد!"[13].

قال ابن عاشور: "وقوله تعالى: **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله**".. بيان لجملة **ويأبى الله إلا أن يتم نوره** بأنه أرسل رسوله بهذا الدين، فلا يريد إزالته، ولا يجعل تقديره باطلا وعبثا. وفي هذا البيان تنويه بشأن الرسول بعد التنويه بشأن الدين.

وفي قوله: "**هو الذي أرسل رسوله**" صيغة قصر، أي هو لا غيره أرسل رسوله بهذا النور، فكيف يتركه معانديه يطفئونه... واجتلاب اسم الموصول: للإيماء إلى أن مضمون الصلة علة للجملة التي بنيت عليها هذه الجملة وهي جملة **ويأبى الله إلا أن يتم نوره**.

وعبّر عن الإسلام "**بالهدى ودين الحق**" تنويها بفضله، وتعريضا بأن ما هم عليه ليس بهدى ولا حق.

وفعل الإظهار إذا عُدّي بـ (على) كان مضمنا معنى النصر، أو التفضيل. أي لينصره على الأديان كلها، أي ليكون أشرف الأديان وأغلبها. ومنه المظاهرة أي المناصرة"[14].

"واللام في "**ليظهره**" لتعليل فعل "أرسل" ومتعلقاته، أي أرسله بذلك ليظهر هذا الدين على جميع الأديان الإلهية السالفة ولذلك أكد بـ "**كله**" لأنه في معنى الجمع.

ومعنى "**يظهره**" يغلبه. والإظهار: أصله مشتق من ظهر بمعنى بدا. فاستعمل كناية عن الارتفاع الحقيقي ثم أطلق مجازا عن الشرف فصار أظهره بمعنى أعلاه. أي ليشرفه على الأديان كلها"[15].

"وتعليل ذلك بقوله "ليظهره على الدين كله" إعلام بأن الله أراد ظهور هذا الدين وانتشاره كيلا يطمعوا أن ينالهم ما نال دين عيسى عليه السلام من القمع

والحق في أول أمره واستمر زمانا طويلا حتى تنصّر قسطنطين سلطان الروم، فلما أخبر الله بأنه أراد اظهار دين الإسلام على جميع الأديان علم أن أمره لا يزال في ازدياد حتى يتم المراد.

والإظهار: النصر ويطلق على التفضيل والإعلاء المعنوي.

والتعريف في قوله "على الدين" تعريف الجنس المفيد للاستغراق، أي ليعلي هذا الدين الحق على جميع الأديان وينصر أهله على أهل الأديان الأخرى الذين يتعرضون لأهل الإسلام.

ويظهر أن لفظ "الدين" مستعمل في كلا معنييه: المعنى الحقيقي وهو الشريعة، والمعنى المجازي وهو أهل الدين كما تقول: دخلت قرية كذا وأكرمتني، فإظهار الدين على الأديان بكونه أعلى منها تشريعا وآدابا، وأصلح بجميع الناس لا يخص أمة دون أخرى ولا جيلا دون جيل.(15)

قال محمد رشيد رضا: وأظهره... جعله فوقه مستعليا عليه، والاستعلاء هنا بالعلم والحجة، أو السيادة والغلبة، أو الشرف والمنزلة، أو بها كلها، وهو المختار.(16)

وقد علق الشهيد سيد قطب على قوله: **ليظهره على الدين كله**.

فقال في سورة التوبة: والله سبحانه يعلن قضاءه بظهور دين الحق الذي أرسل به رسوله على الدين كله بهذا المدلول الشامل العام... إن الدينونة ستكون لله وحده، والظهور سيكون للمنهج الذي تتمثل فيه الدينونة لله وحده... ولقد تحقق هذا مرة على يد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وخلفائه ومن جاء بعدهم فترة طويلة من الزمان، وكان دين الحق أظهر وأغلب؛ وكانت الأديان التي لا تخلص فيها الدينونة لله تخاف وترجف ثم تخلى أصحاب دين الحق عنه؛ خطوة فخطوة بفعل عوامل داخلة في تركيب المجتمعات الإسلامية من ناحية وبفعل الحرب الطويلة المدى، المنوعة الأساليب، التي أعلنها عليه أعداؤه من الوثنيين وأهل الكتاب سواء.

ولكن هذه ليست نهاية المطاف.. إن وعد الله قائم، ينتظر العصبة المسلمة، التي تحمل الراية وتمضي مبتدئة من نقطة البدء، التي بدأت منها خطوات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو يحمل دين الحق ويتحرك بنور الله.(18)

وقال في سورة الفتح : "فوعد الله قد تحقق في الصورة السياسية الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية. ووعد الله ما يزال متحققا في الصورة الموضوعية الثابتة؛ وما يزال هذا الدين ظاهرا على الدين كله في حقيقته. بل إنه هو الدين الوحيد الباقي قادرا على العمل، والقيادة، في جميع الأحوال.

ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم! فغير أهله يدركونها ويخشونها، ويحسبون لها في سياساتهم كل حساب!"[19].

وقال في سورة الصف : "وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يؤديها، ظاهرا بإذن الله على الدين كله تحقيقا لوعد الله، الذي لا تقف له جهود العبيد المهازيل، مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل!.

و لقد كانت تلك الآيات حافزا للمؤمنين المخاطبين بها على حمل الأمانة التي اختارهم الله لها بعد أن لم يرعها اليهود والنصارى. وكانت تطمينا لقلوبهم وهم ينفذون قدر الله في إظهار دينه الذي أراده ليظهر، وإن هم إلا أداة. وما تزال حافزا ومطمئنا لقلوب المؤمنين الواثقين بوعد ربهم، وستظل تبعث في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد الله مرة أخرى في واقع الحياة. بإذن الله"[20].

بعد هذا العرض نستخلص المعاني الآتية :

1/ إن إضافة نور الله –الإسلام– إلى اسم الجلالة "الله" فيه إشارة إلى أن أيّ محاولة لإطفائه وطمسه هي من باب العبث، وهي صورة بائسة من قبل الضعاف المهازيل.

2/ إن عملية إتمام الدين مضمونة بزمان الحال وزمان الاستقبال. فقوله : **"والله متم نوره"** يقتضي إتمامه بالفعل في الحال. وقوله : **"و يأبى الله الا أن يتم نوره"** يقتضي إتمامه في الاستقبال. فيجتمع للإتمام زمانان : الحاضر والمستقبل.

3/ إن ضمان عملية الإتمام لهذا الدين يعتبر بمثابة وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا.. فيحفزهم على المضي في الطريق رغم ما فيه من مشقة وحرب وكيد وتنكيل وبطش شديد.. لاسترجاع أمجادهم والتمكين لدينهم.

4/ إن علة الإرسال لدين الله هي إظهاره على جميع الأديان. وفي هذا إعلام من الله لجميع الخلق أن لا يفكروا أو يطمعوا في إيقافه أو صده.. لأن وعده بالإظهار يبقى في ازدياد إلى أن يتم المراد.

5/ إن عملية الظهور لهذا الدين تحققت مرة على يد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه ومن جاء بعدهم فترة طويلة من الزمان.. ولا تزال لهذا الدين أدوار يظهر فيها في الزمن اللاحق -بإذن الله- تحقيقا لوعده مهما بلغت قوة الكيد والتضليل.

فهذه المعاني المستخلصة من هذا النصّ القرآني يجب أن تكون حافزا للمؤمنين الواثقين بوعد ربهم أن المستقبل سيكون لهذا الدين مرة أخرى يحكم واقع الحياة في جميع نواحيها.

3/ موقف المسلمين مما بشّر الله به نبيه الكريم من غلبة الإسلام والمسلمين :

إن هذه المبشرات تزيد المؤمن يقينا بأن المستقبل للإسلام.. ولا تجعله يخلد إلى الكسل والدعة، بل تحفزه على الجهاد والمكابدة من أجل تحقيق ما وعد الله به رسوله الكريم.

و في هذا المعنى يقول الشيخ القرضاوي : "أن المبشرات بمستقبل الإسلام، التي ذكرناها، لا ينبغي لنا أن نتكل عليها، وننام على آذاننا، ونخلد إلى الدّعة والكسل، وننتظر نصر الله ينزل علينا دون جهد نبذله، وجهاد نمارسه، وعمل دؤوب نقوم به في جوانب حياتنا كلّها، نقوّم ما اعوجّ منها، ونصلح ما فسد، ونبني ما تهدّم، ونقوّي ما ضعف، ونكمّل ما نقص، بروح المجددين، لا بعقلية المقلدين... نستلهم تراثنا، ونجعله منارا يهدينا، لا قيدا يثقل حركتنا، ويعوّق انطلاقنا.

نقتبس الحكمة من أيّ وعاء خرجت، فلا نتقيّد بمدرسة إسلامية واحدة، ولا نلتزم مذهبا واحدا لا نخرج عنه، بل نستفيد من كلّ المدارس والمذاهب والمشارب، في ضوء القواعد المتفق عليها، رادّين المتشابهات إلى المحكمات، والظنيات إلى القطعيات، والجزئيات إلى الكليات، والفروع إلى الأصول... إنّ الرسالات لا تنتصر وحدها، إنما تنتصر بأهلها، والحق لا يعلو وحده، إنما يعلو -وفق سنن الله- بدعاته ورجاله الذين جمعوا بين العلم والعمل والإخلاص.

... فلنمض إذن على بركة الله عاملين مصممين، في صدق لا يعرف الزيف، وثبات لا يعرف التردّد، وعزم لا يعرف الكلل، ويقين لا يعرف الشك، وأمل لا يعرف القنوط، وجهاد لا يعرف القعود. "و الذين **جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين**". [العنكبوت : 69][34].

وقد ذكر الشهيد –سيد قطب– عدة حكم لاستبطاء النصر للإسلام والمسلمين فصلها في قوله الآتي: "إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور". [الحج: 38].

فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم. ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حتما من عدوه، ظاهر حتما على عدوه.. ففيم إذن يأذن لهم بالقتال؟ وفيم إذن يكتب عليهم الجهاد؟ وفيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح، والجهد والمشقة، والتضحية والآلام... والعاقبة معروفة، والله قادر على تحقيق العاقبة لهم بلا جهد ولا مشقة، ولا تضحية ولا ألم، ولا قتل ولا قتال؟

والجواب أن حكمة الله في هذا هي العليا، وأن لله الحجة البالغة.. والذي ندركه نحن البشر من تلك الحكمة ويظهر لعقولنا ومداركنا من تجاربنا ومعرفتنا أن الله سبحانه لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من التنابلة الكسالى، الذين يجلسون في استرخاء، ثم يتنزل عليهم نصره سهلا هينا بلا عناء، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويرتلون القرآن ويتوجهون إلى الله بالدعاء، كلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء! نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة، وأن يرتلوا القرآن، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء في السراء والضراء. ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها؛ إنما هي الزاد الذي يتزودونه للمعركة والذخيرة التي يدخرونها للموقعة، والسلاح الذي يطمئنون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه ويزيدون عنه سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله.

لقد شاء الله تعالى أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم كي يتم نضجهم هم في أثناء المعركة. فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهي تواجه الخطر؛ وهي تدفع وتدافع. وهي تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة. عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدي دورها؛ وتتساند مع الخلايا الأخرى في العمليات المشتركة، ولتؤتي أقصى ما تملكه، وتبذل آخر ما تنطوي عليه؛ وتصل إلى أكمل ما هو مقدر لها وما هي مهيأة له من الكمال.

والأمة التي تقوم على دعوة الله في حاجة إلى استيقاظ كل خلاياها، واحتشاد كل قواها، وتوفز كل استعدادها، وتجمع كل طاقاتها، كي يتم نموها، ويكمل نضجها، وتتهيأ بذلك لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها.

والنصر السريع الذي لا يكلف عناء، والذي ينتزل هينا ليّنا على القاعدين المستريحين، يعطل تلك الطاقات عن الظهور، لأنه لا يحفزها ولا يدعوها.

و ذلك فوق أن النصر السريع البين اللين سهل فقدانه وضياعه. ولا : لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة، وثانيا : لأن الذين نالوه لم تتدرب قواهم على الاحتفاظ به ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه. فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه.

وهناك التربية الوجدانية والتربية العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة، والكر والفر، والقوة والضعف والتقدم والتقهقر. ومن المشاعر المصاحبة لها.. من الأمل والألم. ومن الفرح والغم، ومن الاطمئنان والقلق، ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة.. ومعها التجمع والفناء في العقيدة والجماعة والتنسيق بين الاتجاهات في ثنايا المعركة وقبلها وبعدها وكشف نقط الضعف ونقط القوة، وتدبير الأمور في جميع الحالات.. وكلها ضرورية للأمة التي تحمل الدعوة وتقوم عليها وعلى الناس.

من أجل هذا كله،ومن أجل غيره مما يعلمه الله.. جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم أنفسهم؛ ولم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء.

و النصر قد يبطئ على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله. فيكون هذا الإبطاء لحكمة يريدها الله :

قد يبطئ النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات. فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكا لعدم قدرتها على حمايته طويلا!.

و قد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد. فلا تستبقي عزيزا ولا غاليا. لا تبذله هينا رخيصا في سبيل الله.

و قد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون مدد من الله لا تكفل النصر. إنما ينتزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله.

و قد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل؛ ولا تجد لها سندا إلا الله، ولا متوجها إلا إليه وحده في الضراء، وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يأذن به الله، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها به الله.

و قد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه، أو تقاتل حمية لذاتيا، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله، بريئا من المشاعر الأخرى التي تلابسه. وقد سئل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى. فأيها في سبيل الله. فقال : "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله".

كما قد يبطئ النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد الله ان يجرد الشر منها ليتمحض خالصا، ويذهب وحده هالكا، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار!

و قد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماما. فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارا من المخدوعين فهم لم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تتكشف لهم الحقيقة. فيشاء الله ان يبقى الباطل حتى ينكشف عاريا للناس، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية!.

و قد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة. فلو انتصرت حينئذ لقيت معارضة من البيئة لا يستقر لها معها قرار. فيظل الصراع قائما حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر، ولاستبقائه!

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله، قد يبطئ النصر، فتتضاعف التضحيات، وتتضاعف الآلام. مع دعاء الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية"[35].

الخاتمة : سأوجز في هذه الخاتمة بعض النتائج التي تعتبر بمثابة ثمرة استقراء لآيات القرآن وأحاديث السنة وما تضمنته من رؤى مستقبلية لما سيكون عليه حال الإسلام والمسلمين في قادم أيامه، ومن بين هذه النتائج ما يأتي :

1- إن المبشرات الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية توحي يقينا أن المستقبل لهذا الدين، وأن له دورا في هذه الأرض هو مدعو لأدائه.

2- إن أعداء هذا الدين مهما بذلوا من جهود لإطفاء نور الإسلام، فلا ولن يبلغوا ما أرادوا.. فالدور المرتقب للإسلام لا تملك أي عقيدة أخرى، كما لا يملك أي منهج آخر أن يؤديه.. وبذلك فالبشرية بجملتها لا تملك أن تستغني عنه مهما طال الزمان أو قصر.

3- يجب على المسلمين ألا يخالجهم الشك في أن ما وقع مرة من انتشار نور الله ودخول الناس فيه أفواجا من أنه سيقع ثانية.. وبذلك نحصن قلوبنا من أن يتطرق إليها أدنى شك بسبب الضربات الوحشية التي تتعرض لها طلائع البعث الإسلامي في كل مكان.

4- إن هذه المبشرات يجب أن تكون حافزا للمسلمين بأن يبذلوا مما وهبهم الله من قدرات وطاقات وجهود، ويرتفعوا إلى مستوى دينهم : في حقيقة إيمانهم بالله وعبادته.. وفي وعيهم بما يدور حولهم وفي إحاطتهم بثقافة عصرهم وحضارته.. وفي إدراكهم لطبيعة الحياة البشرية وحاجتها الحقيقية المتجددة.

5- يجب على المسلمين أن يوقنوا أنه ينتظرهم : كفاح مرير.. وكفاح طويل، ولكن كفاح بصير، وكفاح أصيل.. وأن يوقنوا أيضا : أن الله معهم.. وأنه "**متم نوره**".. وأنه "**غالب على أمره**".. وأن "**لله عاقبة الأمور**".

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الهوامش:

(1) التحرير والتنوير (10/171- 172).

(2) التحرير والتنوير (28/190).

(3) التحرير والتنوير (10/172).

(4) التحرير والتنوير (28/190- 191).

(5) التحرير والتنوير (10/172).

(6) محمد رشيد رضا : تفسير المنار (10/448).

(7) تفسير المنار (10/149).

(8) تفسير المنار (10/453- 454).

(9) التحرير والتنوير (28/191).

(10) في ظلال القرآن (3/1643).

(11) في ظلال القرآن (6/3557- 3558).

(12) في ظلال القرآن (3/1643).
(13) في ظلال القرآن (6/3558).
(14) التحرير والتنوير (10/173).
(15) التحرير والتنوير (26/202).
(16) التحرير والتنوير (28/192).
(17) تفسير المنار (10/455).
(18) في ظلال القرآن (3/1644).
(19) في ظلال القرآن (6/3331).
(20) في ظلال القرآن (6/3558، 3559).
(21) تفسير ابن كثير ( ).
(22) في ظلال القرآن (4/2528- 2530)- بتصرف.
(23) أخرجه : أحمد في مسنده (4/103)، وقال عنه الهيثمي: "ورجال أحمد رجال الصحيح" (6/14).
(24) د/ يوسف القرضاوي : المبشرات بانتصار الإسلام (28).
(25) أخرجه : أحمد(2/176)، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد : "رجاله رجال الصحيح" (6/219).
وأورده الألباني في كتابه : سلسلة الأحاديث الصحيحة (1/8).
(26) سلسلة الأحاديث الصحيحة (1/8).
(27) المبشرات بانتصار الإسلام (31).
(28) أخرجه مسلم (4/2215) كتاب : الفتن وأشراط الساعة، باب : هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض.
(29) المبشرات بانتصار الإسلام (32).
(30) أخرجه مسلم في صحيحه (2/701): الزكاة، باب : الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها.
(31) أخرجه : أحمد في مسنده (4/273)، وقال عنه الهيثمي في مجمع الزوائد : "رجاله ثقات" (5/189).
(32) د/ يوسف القرضاوي : المبشرات بانتصار الإسلام (35).
(33) أخرجه البخاري في صحيحه مع الفتح (6/103) كتاب : الجهاد، باب : قتال اليهود.
مسلم في صحيحه (4/2239) كتاب : الفتن وأشراط الساعة، باب : لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة.
(34) المبشرات بانتصار الإسلام (99، 100، 101، 105) - بتصرف.
(35) في ظلال القرآن (4/2425- 2427).